عيونهم إن أراح أو سار ... فالليل ستار، والظلّ ستار، والوعر ستار، وتيه الرمال المترامي إلى آخر أبعاد الرؤية ستار، وهوام[777] الفيافي ستار، والطير[778] ستار. وقبل هذا كلّه، كانت الخطّة، وكانت الحيطة. فلم يترك الرسول رحلة هجرته هملاً في متاهة الظروف كترك الراعي الغفلان إبله متسيّبة، ترعى وتسوم بغير رقيب، فتشرد أو تتخطّفها الذئاب، إنّم أعدّ لكلّ شيء عدّةً ... فلكلّ خطوة حساب، ولكلّ حركة تقدير، ولكلّ تصرّف قد يفجأه به أعداؤه سلوك مضادّ من لونه، خليق بأن يقيه الأخطار ويجنّبه المحاذير. ومن هنا فإنّه أخفى خبر رحيله عن الناس، وعمّى عليهم مساره. ويوم ذهب إلى أبي بكر بداره ليخبره بالتجهّز للسفر، حرص على أن يكون النبأ سرّاً بينهما، فقال: «أخرج من عندك!»[779]. وساعة برحا الدار، خرجا من خوخة[780] في ظهر البيت، على خلاف المعهود; ضماناً للاستخفاء ... وعندما غادرا مكة، لم يكن بها من يعلم شيئاً عن هذه المغادرة إلاّ نُفَير مؤتمن، لا يكادون يجاوزون عدد أصابع الكفّ الواحدة، منهم: فاطمة وعلي وأسماء بنت أبي بكر وأخوها عبدا. فالزهراء كنفسه وعليٌّ مناط سرّه. وأسماء كانت الساعية إليه ثلاث ليال بالطعام في الغارّ، حتّى حانت لحظة انطلاقه وصاحبه إلى المهجر ... وعبدا كان يتحسّس له في أندية قريش أخبار مطارديه. فلمّا فارق غار ثور بعد تلك الليالي، لم يتّجه إلى «يثرب» مشاملاً بغرب على الدرب الساحلي المطروق، كما هو المألوف والمنتظر، بل أمعن السير في الجنوب، ثم انثنى إلى غايته على طريق مهجور. لكن هذا التحرّز الذي يمثل قلعةً حصينةً تتحطّم على أسوارها احتمالات